مَوْسُوعَةُ فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الجُمُعَةِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الجمعة

أ . د . خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الجمعة

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ
رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ
٢ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو
ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٤ ﴾

افتتح الله سبحانه وتعالى سورة الجمعة بالإخبار عن التسبيح والتعظيم له عَزَّ في علاه من جميع مخلوقاته جَلَّ جلاله. فقال تعالى ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ وقد ابتدأت سورة الجمعة بمثل ما ابتدأت به سورة الحديد، وسورة الحشر، وسورة الصف، بإظهار وبيان تنزيه مخلوقات الله تبارك وتعالى لربها جَلَّ جلاله عن كل ما لا يليق بعظمته وجلاله عَزَّ في علاه. إلا أن التسبيح في سورة الجمعة وسورة التغابن ورد بصيغة المضارع المستمر، بينما في سورة الحديد، وسورة الحشر، وسورة الصف، ورد بصيغة الماضي. ولعل من فائدة هذا التغاير هو لبيان أن تسبيح مخلوقاته عَزَّ وجل كائن منها فيما هو ماض منذ خلق السماوات والأرض، ومستمر لا ينقطع، ولن ينقطع. وكذلك لإفادة التأكيد بهذا التغاير، فالفعل الماضي يؤكد المضارع، والمضارع يؤكد الفعل الماضي. فتسبيحهم كائن لا ينقطع منذ أن خلق السماوات والأرض سبحانه وتعالى.

فقال تعالى ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ أي: سبح ويسبح بالذكر والتنزيه والانقياد لله رب العالمين جميع من في السماوات ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ليشمل ذلك جميع المخاليق، من الملائكة والكواكب والنجوم والأفلاك والشمس والقمر، وكل ما ارتفع وعلا من خلقه. وكذلك ﴿ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: الأرض وما خُلِق عليها وفيها، من الإنس والجن والدواب، والحيوانات، وما حوته من بحار ومحيطات وأنهار، وما بداخلها من أنواع الحوت والأسماك والأصداف. فلا شيء إلا وهو يسبح

لله تعالى. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: من الملائكة والأناسي، والجان، والحيوان، حتى الجماد[١] وبهذا يشمل الكافر من الجان والناس، لأن دلالة التسبيح تشمل حتى الخضوع والانقياد، فمن كفر من الجن والإنس، فهو خاضع ذليل لله تعالى. ولذلك قال أهل العلم: أن من دلالات تسبيح الجمادات خضوعها لله تعالى[٢] وهذا من غزارة المعنى الذي أفاد قوة وقهر الله تعالى لكل شيء. فشمل التسبيح الخضوع والخنوع، بأنه تحت قبضة الله تعالى، كما هو التنزيه له عَزَّ وجل عن كل ما لا يليق به وبعظمته تبارك وتعالى.

وقد ذكر عَزَّ وجل في سورة الإسراء ما يبين تفاوت التسبيح بين المخلوقات، فكل له تسبيحه المناسب له، وأن كل شيء يسبح له عَزَّ وجل، ولكن لا يدرك الإنسان فهم تسبيح مخلوقاته جَلَّ شأنه، حيث قال تبارك وتعالى ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ فالسماوات السبع، والأرض تسبح وتنزه الله تعالى، بل وكل من في السماوات والأرض يسبح الله تعالى تنزيهاً وإجلالاً. وهو يجمع التسبيح بالتنزيه، والحمد والثناء الذي يتناسب مع حال وهيئة تلك المخلوقات، وتسخير الله تعالى لها. ولكنكم أيها الناس لا تفقهون وتفهمون تسبيح تلك المخلوقات، مما يفيد محدودية علم ومعرفة الإنسان، وقصور إدراكه، وأن عليه أن يتواضع ويعترف ويؤمن بما جاء عن الله سبحانه وتعالى، من غير منازعة، ولا تطاول على ما قَصُرَ علمه عنه، فيما ليس له به حق. وهذ الإخبار من الله تعالى عن عظيم ملكه، وطاعة خلقه له، ما يفيد ويقرر بأنكم أيها المشركون تُقَدِّمُون الطاعة لغيره عَزَّ وجل، ممن تزعمون زوراً وبهتاناً أنهم شركاء، فليس له جَلَّ جلاله شريك في ملكه، وكل شيء هو ملكه عَزَّ وجل، ويسبح وينقاد له. وبالتالي فإن خلائقه جميعاً طائعة له تبارك وتعالى، وزيادة عن الطاعة تسبح وتنزه الله رب العالمين عن كل نقص.

وقد خص سبحانه وتعالى أهل الأرض باسم موصول ﴿ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ لبيان وإظهار التخصيص لهم باعتبار ما كلفهم به في هذه السورة من وجوب أداء صلاة الجمعة، والتوقف عن التجارة من البيع والشراء وغيره، ثم الإذن بالمعاودة على ما كانوا فيه من التجارة بعد انقضاء الصلاة وإتمامها. بينما في سورة الحديد، وسورة الحشر، وسورة الصف، وردت بدون الاسم الموصول ﴿ وَمَا ﴾ قال تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ وذلك لإيراد الشمول من غير تخصيص. وفي سورة الجمعة، وسورة التغابن ورد

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠٨/٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٩/٤-٣٠)

العموم مع التخصيص. مما يدل على دقة وعظمة البيان، وقوة توافقه مع مقاصده، ليظهر الإعجاز البياني كما هو الإعجاز في خلقه وتدبيره سبحانه وتعالى.

ثم أعقب ذلك البيان إظهار كمال عظمته وعزته وحكمته سبحانه وتعالى التي تستوجب تسبيحه من جميع خلقه عَزَّ في علاه. فقال تعالى ﴿ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ إن ربكم هو المتصف بكمال الملك، فإن من أسمائه وصفاته ﴿ ٱلْمَلِكِ ﴾ الذي له كمال وتمام الملك للكون كله، فهو سبحانه وتعالى الذي خلق جميع أصناف المملوكات، وهي تحت سلطانه وكمال إرادته، ولا يخرج شيء من ملكه عن سلطانه وإرادته. مما يعلم العباد أنهم وما يملكون هم مُلك لله تعالى، وأنه هو الذي مكنهم مما يملكون، ولو شاء لنزع منهم ما يشاء مما يملكون. فعليهم أن يُذعنوا لربهم عَزَّ في علاه، ويطيعوا رسوله صلى الله عليه وسلم، ويتبعوه.

ثم ذكر تبارك وتعالى اسمه المتضمن لصفة الكمال، فقال تعالى ﴿ ٱلْقُدُّوسِ ﴾ أي: الْمُنَزَّه والْمُقَدَّس والْمُعَظَّم والْمُمَجَّد، والْمُطَهَّر من النقص والعيوب، ومن الأنداد، والزوج، والولد. والمعظم في أوصافه وتدبيره وسلطانه. بما يستوجب من العباد تنزيه ربهم سبحانه وتعالى عن كل ما لا يليق به عَزَّ في علاه. وأن يدركوا عظمة ربهم، وجلالته.

وكذلك فإن ربكم هو المتصف بكمال العزة ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة، بما يفيد أن كل من يريد أن يتعالى على الله عَزَّ وجل وعلى كتابه القرآن العظيم، ورسوله صلى الله عليه وسلم، ودينه العظيم، فإن مآله إلى الهزيمة والذلة والخسارة. وأما الصفة الثانية: فهو ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير. بما يفيد ويدل على أن جميع ما خلق الله تعالى هو وفق حكمته، وحكمة تدبيره جَلَّ شأنه، ومن ذلك القرآن الكريم، فإنه كتاب مُحْكَم، لا يعتريه نقص ولا تناقض، ومستوفي كمال الحكمة في أحكامه وتشريعه، وآدابه وقصصه ومواعظه وبيانه، لأنه جاء من الحكيم سبحانه وتعالى.

كما يفيد ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أنه سبحانه وتعالى حكيم في أمره، وتدبيره، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه، من الإيجاد لهم بعد العدم، ثم إلى العدم بعد الوجود، وذلك بموتهم وفنائهم، ثم من العدم إلى الوجود، وذلك ببعثهم وإحيائهم يوم البعث والنشور. فيحاسب ويجازي بحكمته. كما هو الحكيم في أفعاله وأقواله، وتدبيره، وتشريعه، وفي جميع شؤون خلقه عَزَّ وجل.

كما يفيد هذا الإعلام من الله تعالى بهاتين الصفتين: التحذير أيضاً لكل من يدبر ويخطط، ويضمر الشر لدينه سبحانه وتعالى، ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين، فإن حكمة الله تعالى في معالجة الأمور تُسقط أهل الشر فيما يدبرون من الشر لدينه ولأهل دينه. فإن أمرهم مكشوف عند الله تعالى، وسيجعل كيدهم في نحورهم، ووبالاً عليهم.

وقد أكد بأسلوب المبالغة أنه سبحانه وتعالى هو ﴿ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فهو عزَّ وجل الذي له كمال وتمام الملك للكون كله، وليس ذلك لغيره. وأنه الْمُنَزَّه والْمُقَدَّس والمعظم والممجد، وليس ذلك لغيره. وأنه المتصف بكمال العزة والحكمة. وقد حصر سبحانه وتعالى كمال ذلك له جَلَّ في علاه. كما أفادت بُنية ﴿ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ المبالغة في ذلك، بامتداد المعنى إلى أقصى غايته. فمن كانت هذه صفاته العظيمة، فإنه يستوجب الرهبة من عظيم سلطانه وهيمنته وعزته وقوته وقدرته سبحانه وتعالى، وكذلك الإذعان لكمال حكمته، سواء عَلِم بها العبد أو لم يعلمها. وكذلك الرغبة في رحمته بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، واتباع كتابه القرآن العظيم، وشرعه الحكيم. فالحمد والشكر على نعمائه سبحانه وتعالى.

وبعد أن أوضح رب العالمين تمجيد وتنزيه جميع المخلوقات لربها جَلَّ جلاله، وبيان عزته وحكمته تبارك وتعالى ينتقل السياق المجيد إلى بيان أن من مظاهر مُلكه وقدسيته وعزته وحكمته أن أرسل في هذه الأمة الأمية رسولاً، ليعلمهم القرآن الكريم، وعلوم هذا الدين الحنيف، حتى ينقلهم من الجهل إلى العلم، ومن ظلام الجهل إلى نور العلم والدين. فقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فإن ربكم أيها الناس هو الذي اصطفى محمداً رسولاً صلى الله عليه وسلم من بين أفراد هذه الأمة العربية التي لا تقرأ ولا تكتب. وإن كانوا قبل بعثته عليه الصلاة والسلام في جهل من الضلال، ثم أصبحوا ببعثته أمة ذات شأن بين الأمم.

وقد بدأ البيان الكريم باسم الإشارة ﴿ هُوَ ﴾ ثم تلاه الاسم الموصول ﴿ ٱلَّذِى ﴾ لإفادة التعظيم له تبارك وتعالى، وكذلك إظهار رفعة ومنزلة نبوة رسوله صلى الله عليه وسلم، وامتنانه سبحانه وتعالى على الأمة الأمية، وكذلك لحصر بعث النبي صلى الله عليه وسلم منه وحده لا شريك له ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ ﴾ فهو الذي أنعم وامتن بهذا العطاء وهذا الاصطفاء. وقد ورد الإرسال بكلمة ودلالة البعث ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ ﴾ التي تفيد في عموم معناها: الإرسال والإخراج، فأرسل منهم، وأخرج فيهم ومنهم. وقد سماهم بما كانوا عليه من عدم معرفتهم واهتمامهم بشأن الكتابة ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ ﴾ والأميين جمع أمي. وهو الذي لا يكتب،

ولا يقرأ. مما يبين جهل العرب بالقراءة والكتابة. بما يمجد ويزكي رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، بأنه من أمة عربية ليس لها اطلاع على الكتب السابقة، إلى درجة أنهم أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب.

وكان صلى الله عليه وسلم ﴿ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ أي: واحداً من هذه الأمة الأمية، فإنه عليه الصلاة والسلام لا يقرأ ولا يكتب. بما يؤكد به أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو واحد منهم، فلا يقرأ ولا يكتب مثل بقية قومه صلى الله عليه وسل. كما قال عليه الصلاة والسلام (إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب) [١] فليس لديه استطاعة الاطلاع على ما سبق من الكتب، وليس لديه إمكانية التحرير والكتابة، وبالتالي ليس له القدرة عليه الصلاة والسلام بأن يقول بمثل ما في الكتب السابقة، أو يحاكيها. قال قتادة رحمه الله تعالى: كانت هذه الأمة أمة أمية، لا يقرؤون كتاباً[٢] فورد البيان بهذا الوصف مقصوداً، لما فيه من البرهان القاطع على أنه صلى الله عليه وسلم نبياً رسولاً من الله سبحانه وتعالى.

ثم بعد إثبات النبوة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم يتدرج البيان إلى إظهار الهدف والغاية من بعثته صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ فأول هذه الأهداف والغايات من بعثته عليه الصلاة والسلام: أنه ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي: ليقرأ على هؤلاء الأميين ما أنزل الله تعالى من القرآن. والهدف الثاني: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي: تطهيرهم من دنس الكفر. وذلك بما يأمرهم به من الدين، وما ينهاهم عنه مما يعارض شريعة الله تعالى، فتزكوا نفوسهم بذلك، وتتطهر من دنس الجاهلية، ومن خُبث الشرك، وظلامه وضلاله. والهدف الثالث: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ وهما: القرآن الكريم، والسُّنَّةَ المطهرة.

ثم يشير تبارك وتعالى إلى ما هم عليه قبل البعثة النبوية. فقال تعالى ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فإنهم كانوا قبل هذه البعثةِ النبويةِ في ضلال من الجهل الواضح والظاهر. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فَقَبْلَ هذه البعثةِ النبويةِ، كانوا في ضلال من الغي والجهل الواضح الْبَيِّن الجلي لكل أحد[٣] وفي ذكر عموم الضلال من غير تخصيص بنوع محدد ما يدل على عمق وسعة مساحة سلطان الضلال الذي ساد حياتهم بجهلهم الذي منعهم من الوصول إلى العمل بما يحبه الله تعالى ويرضاه، من الاعتقاد والأقوال والأفعال، فاستوطن فيهم

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (١٩١٣) مسلم، صحيح مسلم، برقم (١٠٨٠)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٢٦/٢٢)

(٣)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٣٣/١)

الشرك وضلال الجهل والجاهلية. مما يبين ويدل على نعمة البعثة النبوية الكريمة التي أنقذ الله تعالى بها من صَدَّق وآمن بها.

وفي امتنان الله تعالى ببعثته عليه الصلاة والسلام، وقيامه صلى الله عليه وسلم بهذه المهام العظيمة من تعليم القرآن الكريم والسنة النبوية، وبما يأمرهم به وينهاهم عنه، حتى تزكوا نفوسهم وتعلوا وتطهر، ما يفيد علو مكانة ومنزلة من يقوم بهذا الأمر، أو ببعضه من بعده صلى الله عليه وسلم، لأنه يؤدي رسالة النبي صلى الله عليه وسلم. فَيُقَرِّب العباد من ربهم تبارك وتعالى. وبالتالي يدخل في ذلك معلم الناس الخير، والداعية والعالم. مما يبين أهمية مهمة العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وأن مهام التعليم لهذا الدين تنضوي على تَعَلُّم القرآن الكريم: تلاوة وفهماً وتطبيقاً وتعليماً لغيرهم، وكذا تَعَلُّم السنة النبوية، بفهمها وتطبيقها والعمل بهما، وتطهير النفس من كل ما يضاد منهج الله تعالى ومراده. وكذا القيام بالتعليم والتربية المقتضية لعملية التزكية والتطهير بالطاعة والإخلاص لله تعالى، والتي هي التطبيق والتنشئة على كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه.

ومن هذه الآية الكريمة نستخلص أسس التعليم وقواعده، بأنها قائمة على: الممارسة والإيضاح والبيان لعملية التعلم، التي تنطلق من قوله عَزَّ وجل﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ والتي تتطلب الاستماع للمراد تعليمه أولاً، وذلك بإشغال السمع والذهن به، حتى يستوعبه، ويفهمه ويدركه إدراكاً سمعياً وقلبياً، بما يُفضي بالمتعلم إلى التزكية والتطهير من الجهل، كما قال تعالى ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ فينشئهم على الخير والصلاح بما يسمعون من الحق، فتتطهر قلوبهم وجوارحهم من السيئات. ثم ما يلزم ويتطلب من التعليم الذي يرتقي بمستوى القدرات، كما قال تعالى ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ ليشمل بذلك عملية التفهيم وتنمية القدرة على إدراك الأدلة والشواهد، الاستنباط والاستنتاج. أي: الاجتهاد للوصول للحكم بعد تَعَلُّم جميع أدواته الْمُوصِلَة له. وكذلك ما يتعلق بتقوية الإرادة وتنشيطها وتحفيزها للعمل والتطبيق، وليتطهر بها العقل والعمل والسلوك من كل شائبة وعائق. وهو الذي تجلى في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، من تفوقهم رضي الله عنهم في المجال العلمي والعملي، ومعالجة الأمور بحكمة، فكانوا لمن بعدهم خير قدوة رضي الله عنهم، وخير الأصحاب للرسول صلى الله عليه وسلم في كل شأن.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى ما امتن به على الأميين العرب من بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، والأمر والشأن الذي سيقوم به عليه الصلاة والسلام من تلاوة كتاب الله تعالى عليهم، وتزكيتهم، بتطهيرهم من دنس الجاهلية، وشركهم، وما سينالهم من العلم بكتاب الله تعالى وبالسنة النبوية المطهرة، ينتقل البيان إلى مزيد امتنانه عَزَّ وجل على غيرهم من الأمم، وعلى ممن سيأتي من بعدهم من الأجيال المتعاقبة إلى يوم الدين. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وكذلك شمول فضل بعثته عليه

الصلاة والسلام لغيرهم ممن سيلحق بهم من غيرهم من الأمم، وممن لم يلحقوا بهم ذلك الوقت، ولكنهم سيلحقون بهم في متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام.

ومن دقائق البيان في بلاغة سياقه وإعجازه؛ أن استوعبت الآية الكريمة دلالات متعددة، في قوة من التضامن والتوافق، والتعاضد، من غير تضاد ولا اختلاف. فقد ورد في تأويلها وتفسيرها ما لَخَّصَهُ ابن الجوزي رحمه الله تعالى. حيث ذكر في معنى ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ قولين: أحدهما: وبُعِثَ محمدٌ صلى الله عليه وسلم في آخرين منهم. والثاني: ويُعَلِّم آخرين منهم، ويزكيهم. وأما في المراد بالآخرين، فهناك أربعة دلالات: أحدهما: أنهم العجم. فعلى هذا إنما قال ﴿مِنْهُمْ ﴾ لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم، إذ المسلمون يد واحدة، وملة واحدة. والثاني: أنهم التابعون. والثالث: جميع من دخل في الإسلام إلى يوم القيامة. والرابع: أنهم الأطفال[١] الذين سيلحقون بهم عندما يبلغون. فاستوعبت غير العرب ممن سيدخل مع الأميين العرب في الإسلام، لتشمل بذلك كل من لا يتكلم العربية. وشملت دلالتها أيضاً الذين يأتون من بعد الصحابة. واستوعبت كذلك جميع من يدخل في الإسلام إلى يوم القيامة، واستوعبت الأطفال الذين سيكبرون ويدخلون في الإسلام. وهذا الاستيعاب بسبب بلاغة البيان في تراكيب ألفاظه التي استوعبت هذه الأوجه المتظافرة. مما يدل على أن هذا القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، المعجز في قوة سياقه، وتراكيب ألفاظه.

ثم يشير تبارك وتعالى إلى عزته وحكمته التي استوفت بيان ما قَدَّرَهُ عَزَّ وجل مستقبلاً، بعزته وقهره مع حكمته العظيمة الجليلة في ذلك. فقال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وهو لا غيره الذي له كمال العزة والحكمة، فيعز دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، بقهر أعدائهم وإذلالهم، ونشر دينه، وتعاقبه بين الأجيال عبر الأزمان المتعاقبة. وذلك بحكمته في حُسن التدبير والترتيب والتنظيم، مع الإحكام والإتقان في التصريف والتقدير. بما يفيد ويدل على أن جميع ما يقضيه عَزَّ وجل هو وفق حكمته، وحكمة تدبيره جَلَّ شأنه، فإن من صفات ربكم كمال العزة، وكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه.

ثم يذكر تبارك وتعالى امتنانه ببعثة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك امتنانه على من أسلم ودخل في الإسلام، فقال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فيشير تبارك وتعالى إلى ما سبق ذكره باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ لتستوعب جميع ما تم ذكره، من بعثه سبحانه وتعالى في الأميين رسولاً، وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ليتلو عليهم آيات الله تعالى، ويزكيهم، ويعلمهم القرآن والسنة، وكذلك امتنانه عَزَّ وجل على من يلحق بهم من غيرهم، سواء من العرب وغير العرب، أو من جميع

(١)ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٠/٨)

الأجيال المتعاقبة التي تدخل في الإسلام. فجميع ذلك هو فضل من الله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ ﴾ أي: أنه تفضل وامتنان من الله تعالى ﴿ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ يمنحه لمن يشاء من عباده، بالتوفيق والتسديد لهم. أي: فإن جميع من اتصف بهذه الصفات فإنما هو بفضل ومِنَّة من الله تعالى عليه، بأن وفقه وهداه للحق والخير. مما يستوجب على كل مؤمن أن يحمد الله تعالى على أن وفقه للإسلام، وأن يشكر ربه سبحانه وتعالى بقلبه، وبلسانه، وبالطاعة والامتثال.

وقد أعطت دلالة قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ إثبات كمال الملك والحكم بأنه لله عَزَّ وجل، وفق ما يشاء، مما يُوجب على العبد أن يرفع سؤال التوسل إلى الله تعالى بأن يغفر له، وأن يوفقه لدخول الجنة بفضله وكرمه ورحمته، وألا يعتمد على عمله فقط. فهو الذي يمنحه لمن يشاء من عباده ﴿ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ وهم الذين شاء الله تعالى أن يكونوا من أهل طاعته بالاتباع لدينه. فيؤتي هذا الفضل العظيم لمن يشاء من عباده فضلاً وإحساناً وامتناناً. فهو عَزَّ وجل الذي يوفق من يشاء، لاتباع دينه. فأثبت تبارك وتعالى لنفسه مشيئة التفضل بفضله عَزَّ وجل لمن يشاء، وبالتالي إدخال الجنة لمن يشاء، وهم الذين أطاعوه باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يذكر تبارك وتعالى عظيم فضله، بما يحفز العباد لسؤاله والتضرع إليه، والاجتهاد في طاعته سبحانه وتعالى، وابتغاء فضله جَلَّ جلاله. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ فإن الله تعالى متصف بالفضل العظيم، وهو العطاء المتصف بالعظمة في نوعه وحجمه، فإن ربكم أيها الناس ذو إحسان، وهذا الإحسان متصف بالعظمة، وأنها صفة من صفات الله تعالى. وإذا كان المتصف بهذه الصفة له ملك السماوات والأرض، فإنه لا يعجزه شيء من العطاء، ولا ينقص ذلك من خزائنه شيء. وأن العطاء منه سيكون عظيماً للعباد إذا أعطاهم. اللهم إنَّا نسألك من فضلك العظيم في الدنيا والآخرة. وقد وصف الله سبحانه وتعالى فضله بالعظيم ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ ودلالة العظيم، تفيد الكثرة والتعدد، وتفيد: الضخامة والفخامة والمجد. فإن فضل الله تعالى لا يُحَد ولا يُعَد. اللهم إنا نسألك من فضلك العظيم في الدنيا والآخرة يا رب العالمين، والمسلمين أجمعين.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ

وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٨ ﴾

يضرب الله تعالى مثلاً عظيما في قوة بيانه وإفصاحه لمن لم ينتفع بما أنعم الله تعالى به عليه من الدين، وأصوله، كاليهود الذي أنزل الله تعالى فيهم كتابه التوراة، فلم يحملوا التوراة بما يجب من العناية والامتثال والشكر والطاعة لربهم على هذه النعمة العظيمة. فقال تعالى ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فقد كان اليهود في حملهم للتوراة كمثل الحمار الذي يحمل على ظهره الأسفار من الكتب النافعة، ولكنه لا ينتفع بما يحمل من الخير، لأنه لا هم له بها، وبالتالي لم تكن له عناية بتلك الكتب. فما هي إلا أحمال يحملها ويتحملها من غير فائدة تعود عليه منها. فكان أولئك اليهود مع ما جاءهم من الحق كمثل الحمار الذي يحمل عظائم الكتب فلا ينتفع بها.

وبدأ هذا المثل العظيم بلفت الانتباه لدلالته بكلمة ﴿ مَثَلُ ﴾ الذي يعني: أن هناك نضير وشبيه، مشتمل ومتماثل على ما يشابهه. فهناك تشابه بين شيئين متماثلين في التصرف، مع وجود غرابة مدهشة بينهما، لتعطي الفكر علماً عن واقع ذلك الأمر بأقصى درجات التعليم، وتكشف له حقيقة الحال بهذا المثل، كما أن في كلمة ﴿ مَثَلُ ﴾ ما يدل ويفيد على أن هناك معناً مهماً ومقصوداً سيتم التنبيه عليه، مع توضيح صورته وهيئته، وتجليت معناه وحقيقته من خلال تقريبه إلى العقول بالمثل الشبيه المضروب له، حتى يستوعب الْمُخَاطَب المقصود بالشيء الماثل والمماثل أمامهم من المحسوسات، التي هي هنا الحمار وحمله الأسفار من الكتب النافعة، ليكون ذلك المثل أوقع أثراً في العقول، وأوقع إثارة في النفوس. وأن هناك مُشَبَّه، ومُشَبَّه به، وبينهما قاسم مشترك في الحمل، وفي التفكير، وفي الاتخاذ والتجاهل لما امتن الله تعالى به عليهم في الانتفاع.

وقد جعل الله تعالى نعمة نزول التوراة فيهم مستوجب الحمل والعناية بها ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ﴾ فإن التحميل لهم بها هو من خالقهم، الذي رباهم بالنعم، وبعث فيهم رسوله موسى عليه الصلاة والسلام بالتوراة. وورد التحميل بالفعل الذي لم يُذكر فاعله ﴿ حُمِّلُواْ ﴾ لإظهار قوة التحميل والتكليف والمسؤولية لهذه النعمة، وكذلك لإظهار مقام التشريف بما حَمَّلَهُم ربهم سبحانه وتعالى من التوراة وعموم رسالة رسوله موسى عليه الصلاة والسلام.

ثم بعد هذا التحميل والتكليف والتشريف من الله تعالى لهم بكتابه التوراة، يخبر سبحانه وتعالى بحرف الترتيب ﴿ ثُمَّ ﴾ أي: أنهم بعد ذلك لم يحملوها ﴿ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا ﴾ لم يعملوا بمقتضاها وبموجبها، فما أطاعوا الله تعالى فيما أمرهم به، ولا انتهوا عما نهاهم عنه. وكذبوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، المذكور في التوراة، وقد أُمروا فيها بأن يؤمنوا به صلى الله عليه وسلم. فكان حالهم مع التوراة مشابه لما يحمله الحمار من اسفار الكتب ﴿ كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ ﴾ فحالهم من قوة الشناعة كحال الحمار تماماً ﴿ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا ﴾ تُشَدُّ فوق ظهره أحمال من المنافع، ولكنه لا يهتم بما يحمل، لأنه لا يكترث بنوع ما على ظهره من أحمال، ومع ذلك هو معذور لجهله، ولكن هؤلاء غير معذورين بنعمة العقل والإدراك. فالحمار لا يعرف ما يحمل، وليس له عناية ولا اهتمام بها، فحمله لها كحمل أي شيء آخر، نافعاً كان أو ضاراً. فإنه لا يُقَدِّر ولا يعرف منزلة ومكانة وثمن وقدر ما يحمله. وأما هؤلاء الذين حَمَّلَهم اللهُ تعالى التوراة، فقد كانوا مع هذا الكتاب العظيم كمثل الحمار مع ما يحمله من الأسفار. وهو مثل في غاية الإيضاح لشأن اليهود مع كتابهم التوراة. مما يبين عظيم عناية القرآن الكريم بالأمثال الموضحة للحال بأدق الإيضاح. كما يبين ذلك أهمية المثل في تقريب الصورة، وإيضاح المعنى والمدلول والمقصود. وهو الأمر الذي يُعَلِّم أهمية المثل في العملية التعليمية.

ثم بعد هذا المثل اللصيق بهم وبحالهم يأتي الذم من الله تبارك وتعالى لهم بأعلى درجات التوبيخ والتهديد، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ فبئس المثل مَثَلُ هؤلاء القوم الذين لم يمتثلوا بما جاء في التوراة، فكذبوا بحجج الله تعالى، الدالة على وجوب عبادته، وإفراده بالعبادة، والامتثال لما ورد فيها من نبوة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وقد افادت دلالة ﴿ بِئۡسَ ﴾ أقصى قوة الذم وأبلغه. لأن دلالة ﴿ بِئۡسَ ﴾ هي أبلغ وصف عند إرادة عظيم الذم وأبلغه. فأعطت أقصى قوة الذم وأنكله. إذ جمعت جميع صفات الذم كلها، فهي أبلغ وصف عند إرادة عظيم الذم وأبلغه.

ثم بين سبحانه وتعالى عقوبته لمن لم يهتد بهديه سبحانه وتعالى من الحجج والبراهين. فقال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى لا يوفقهم إلى الأخذ بالهداية التي تنجيهم من عذابه عَزَّ وجل. أي: أنه يعاقب الذين ظلموا كتابه التوراة، بإنكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، المذكور فيها، بعدم توفيقهم للأخذ بالحق، والدخول في الإسلام. فاشتمل ظلمهم على ظلم التوراة، بحجب الحق الذي فيها، وعدم العمل به، وكذلك بظلم دينه الإسلام، وكتابه القرآن العظيم، ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الإنكار. فَرَتَّب الله تعالى على ذلك الظلم منهم ألا يوفقهم إلى الأخذ بالهداية التي تنجيهم من عذابه عَزَّ وجل. بأن يجعلهم ثابتين على كفرهم، عقوبة لظلمهم الذي واجهوا به كتابه القرآن الكريم، ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

مما يفيد التحذير لليهود مما هم عليه من نكران دين ونبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وكذلك فيه تحذير لجميع العباد من أن يكون حالهم مثل حال اليهود مع التوراة والقرآن الكريم، بإنكار نبوته عليه الصلاة والسلام الثابتة في التوراة. فإياكم أن تظلموا رسولكم، وما معه من الحق، فيحرمكم الله تعالى الهدية. وفي هذا غاية التحذير لمن بعث الله تعالى فيهم رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وإلى جميع الناس عبر تعاقب الأجيال إلى أن تقوم الساعة.

ثم يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله لهؤلاء اليهود الذين يزعمون أنهم أولياء لله سبحانه وتعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ قل يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود، مخاطباً لهم بما يزعمون من أنهم أولياء لله تعالى، كما ورد في سورة المائدة ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾ فخاطب هؤلاء ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ ﴾ أي: يا أيها الذين تَهَوَّدُوا، بالدعاء الفضيلة، من أنهم أولياء الله تعالى وأحباؤه. ﴿ إِن زَعَمْتُمْ ﴾ إن كانت دعواكم فيما تدعون ﴿ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ ﴾ بأنكم أولياء الله تعالى حقيقة من دون الناس جميعاً ﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ فقل لهم إن كان زعمكم حقيقة أنكم أولياء لله تعالى من دون الناس ﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ حتى تصيرون إلى النعيم كما تزعمون كذباً وبهتاناً بأنكم أولياء لله تعالى. لأن أولياء الله عَزَّ وجل لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فلهم السعادة بعد موتهم، فإن آخرتهم خير لهم من دنياهم. فاسألوا الله تعالى الموت إن كنتم صادقين في زعمكم.

ومن دقائق البيان أن ورد الوصف لدعواهم بدلالة الزَّعْم ﴿ إِن زَعَمْتُمْ ﴾ التي تفيد في معناها: الادعاء الكاذب من غير حجة ولا برهان، فهو كذب محض. كما أن الدليل على كذبهم أنهم لا يتمنون الموت، لإدراكهم أن دنياهم خير لهم من آخرتهم. فأردف تبارك وتعالى إثبات باطلهم بطلب الاستعجال للموت. لأن حياة أولياء الله عَزَّ وجل في آخرتهم خير لهم من دنياهم.

ثم يخبر الله تعالى عن حقيقتهم بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ فلا يتمنون الموت بسبب ما يعرفون عن أنفسهم، من ارتكابهم ما يُغضب الله تعالى، بالتحريف والتزوير، والكفر والمعاصي. وتكذيبهم برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وإنكارهم للقرآن العظيم، وهم يعلمون بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عندهم من ذكره ونعته في التورة. كما قال تعالى عنهم في سورة البقرة

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ فأهل الكتاب يعرفون من خلال كتابهم التوراة أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً نبياً، لِمَا عندهم من الأوصاف التي يَزُولُ بها الجهل عنهم زوالاً حقيقياً، حتى بلغت معرفتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم درجة معرفتهم بأبنائهم.

ثم يخبر الله تعالى عن عظيم علمه بجميع الظالمين ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فإن الله عَزَّ وجل عالم بجميع الظالمين، ومنهم اليهود الذي لم يحملوا التوراة، بل كان شأنهم مع التوراة كالحمار في حمله للأسفار من الكتب التي لا تعنيه في شيء، ولا يفهم منها شيء. بما يفيد التهديد والوعيد لهم، ولكل الظالمين. بما يبين أن الواجب عليهم هو التصديق والإيمان والاتباع، ولكن الحسد والاستكبار يجعل المكابر يزداد في كبريائه على حساب الحق، وعلى حساب هلكته في الدنيا والآخرة. مما يبين خطر الحسد والاستكبار على الإنسان في جميع الأحوال والتصرفات.

ثم يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يخاطبهم بقول الله تعالى لهم ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قل لهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ إن الموت الذي تهربون منه ولا تريدونه ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ فإنه مواجهكم، وستلقونه حتماً.

ومن دقائق البيان أن ورد وصف حالهم مع الموت بدلالة الفرار ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ بما يفيد شدة خوفهم وهلعهم من حصوله بهم. بما يكشف لهم خطأ وخطر الذي هم عليه من الكفر. فإن الموت الذي حالكم معه كحال الهارب منه، كرهاً له وخوفاً مما سيعقبه ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ فإنه مواجهكم، وستلقونه حتماً ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ ثم بعد الموت يتم إرجاعكم إلى ربكم. بما يفيد الحساب والجزاء. وقد قرن سبحانه وتعالى بين عودتهم إليه عَزَّ وجل وبين صفة العلم بالغيب والشهادة ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ فإنه عَزَّ وجل الذي لا يغيب ولا يخفى عنه شيء أبداً. فهو عالم بسرائركم ودواخلكم، مما تسرون به، وتكتمونه، وأيضاً ما كنتم تظهرونه من الباطل. وبما يفيد دقة الإحصاء والمحاسبة، وقوة الجزاء.

وقد تضمن قوله عَزَّ وجل ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أمرين: أحدهما ﴿ ٱلْغَيْبِ ﴾ أي: العالم بما يتستر به خلقه، مما يتخفون به، وكذلك ما غاب عن خلقه من مخلوقاته التي لا تُعد ولا تُحصى، وما غاب عن بعضهم البعض؛ ومن ذلك ما تخفيه الضمائر والنفوس، وما تُكِنُّه الصدور. فلا يغيب ولا يستتر عليه شيء من الخلق أبداً. فلا ظُلْمَةٌ ولا سِترٌ يمنع علم الله تعالى، ويحول دونه. ثم ذكر عَزَّ وجل: علمه بالظواهر ﴿ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ المتضمنة في دلالتها ما يكون منهم، مما يُظْهِرُونَهُ ويعلنونه من الباطل، فكذلك علم ربكم متضمن لِمَا يشاهده الخلق ويعاينونه بحواسهم المختلفة. فأعادهم الله تعالى إلى ما يُوجب الخوف منه، والعدول عن الكفر إلى الإيمان.

وكذلك من فوائد العلم بدلالة ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ ما يربط ويُظهر ويبين العلاقة الوطيدة والمتلازمة بين الإيمان بالغيب والإيمان بالشهادة. فمن يؤمن بالشواهد من خلق الله تعالى وتدبيره فإنه يلزمه الإيمان بالغيب الذي دلت عليه شواهد قدرة الله تعالى، كإنبات الأرض بعد موتها، وحركة الكون وثبوته، وجميع ما فيه من المخلوقات المتحركة والثابتة. بل قدم سبحانه وتعالى علم الغيب على علم الشهادة، لإظهار أهميته للمُخَاطَب. وفي الإيمان بذلك ما يغرس التقوى في المؤمن، ومراقبة الله تعالى في النفس. فتكون حياته بين الخوف والرجاء، وهما الأمران الجالبان للسعادة، والضابطان لسلوك الإنسان في كل وقت وحين. وأنه الطريق للهداية والاستقامة، ثم إلى جنة التي عرضها كعرض السماوات والأرض. ونسأل الله تعالى الجنة لنا ولجميع المسلمين بفضله ورحمته وتوفيقه.

وبعد أن أثار تبارك وتعالى عندهم أهمية عودتهم إليه عَزَّ وجل، وما يتبع ذلك من الحساب والجزاء من الله العالم بالغيب والشهادة يذكر بعد ذلك لهم سبحانه وتعالى جميع ما كان منهم. فيقول عَزَّ وجل ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيخبركم بما كان منكم، من خير أو شر. بما يفيد أنه مسجل عليكم، بما يُوجِب عليهم الحذر، والطاعة. فعليكم أن تعملوا لذلك الرجوع، وتستعدوا له بالطاعة والامتثال لربكم سبحانه وتعالى، وتؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وتدخلوا في دينه الذي نسخ به الأديان كلها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

بعد أن تناولت سورة الجمعة عدداً من القضايا المتنوعة من تسبيح جميع مخلوقاته عَزَّ وجل، وتعظيمها لله تبارك وتعالى، وبيان شأن اليهود، وأن مَثَلَهُم في حملهم للتوراة كمثل الحمار في حمله للأسفار من الكتب التي لا ينتفع منها بشيء، وبعد ما سبق من ذلك البيان العظيم تنتقل سورة الجمعة إلى بيان ما تحمله من الاسم والدلالة الخاصة بصلاة الجمعة، فَيُفْرِدُ اللهُ تعالى لها آيات عظيمات، للدلالة على منزلة صلاة الجمعة، ومكانتها، ووجوب الاستعداد لها، وتقديمها على جميع المصالح، ومنها التجارة. فقال سبحانه وتعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ فخاطب الله تعالى المؤمنين بأفضل الوصف والمدح والثناء لهم. فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فبدأ الخطاب الكريم بمناداة المؤمنين بأفضل وأحسن المراتب والرُّتَب، بقوله عَزَّ وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[1] وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه للمؤمنين بإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية.

وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم عليه من التصديق والإيمان، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، والتشجيع والترغيب لهم في متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في كل أمر وشأن. إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به، وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ثم بعد هذا النداء الذي يثير شوق القلوب للمتابعة، ويدفعها لمعرفة الشيء والأمر الذي ناداهم ربهم إليه. يقول سبحانه وتعالى ﴿إِذَا نُودِىَ﴾ إذا حصل ووقع النداء بالأذان ﴿لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ بما يبين ويفسر المقصود من هذا النداء بأنه لأداء صلاة الجمعة ﴿فَٱسۡعَوۡاْ﴾ فامشوا إليها. قال قتادة رحمه الله تعالى: والسعي يا بن آدم أن تسعى بقلبك وعملك، وهو المضي إليها[1] مما يبين أن حكم صلاة الجمعة فريضة واجبة، وأن السعي لها واجب، لِمَا ورد من دلالة السعي التي جاءت بصيغة الأمر ﴿فَٱسۡعَوۡاْ﴾ والذي مفاده الوجوب. وبالتالي فإن ترك ما يُشغل عنها واجب أيضاً، لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

وقد سَمَّى الله تبارك وتعالى هيئة الذهاب إليها بدلالة السعي ﴿فَٱسۡعَوۡاْ﴾ الذي يعنى الاهتمام والجد في المشي إليها، وترك ما يعطلها من عموم الأشغال. بما يفيد البعد عن التهاون في ذلك، لأنها فريضة واجبة. ثم ذكر سبحانه وتعالى الغاية من ذلك السعي، فإنه من أجل أن تقوموا بأداء الذكر لربكم سبحانه وتعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ فامضوا إلى حيث ما تذكرون الله ربكم، من الخطبة والصلاة التي هي ذكر الله سبحانه وتعالى. وفي هذه التسمية لها بذكر الله تعالى ما يشير إلى مكانتها ومنزلتها الرفيعة. لما يحصل فيها من الوعظ والذكر لله تعالى. فإن الصلاة مشتملة على الذكر، من قراءة القرآن والتسبيح الدعاء. وكذلك تميزها بالخطبة الواعظة الجليلة.

فيحث اللهُ تعالى المؤمنين إلى الخير العظيم الذي هو أعظم أنواع الخير، حتى أمرهم بترك ما يحبون من التجارة والتكسب. فقال تعالى ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ واتركوا البيع والشراء. وقد ورد الأمر بدلالة البيع دون الشراء، لأن البيع متضمن للمعاوضة من البيع والشراء. ولأنه إذا توقف البائع، لم يأت الشاري، أو المشتري. والبيع يشمل المعاوضة بين البائع والمشتري. وفي هذا دقة بيانية في الإعجاز الدلالي في القرآن الكريم.

ثم يبين تبارك وتعالى أهمية صلاة الجمعة بالمفاضلة بين مكاسب التجارة وبين أداء صلاة الجمعة. فقال تعالى ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: سعيكم وذهابكم إلى ذكر الله تعالى بأداء صلاة الجمعة ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أفضل وأكثر ربحاً مما أنتم عليه من البيع والشراء. وبعد التحفيز لصلاة الجمعة بالمفاضلة الخيرية، يحفزهم كذلك سبحانه وتعالى

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٦٣٧)

إلى صلاة الجمعة بالتفهيم وتحصيل العلم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فإن كنتم من أهل العلم فلا يخفى عليكم هذا التفاضل في الخير الذي تطلبونه.

ومن دقائق التوجيه الكريم في الحث على صلاة الجمعة أن الله تعالى لم يزهدهم في التجارة، أو يُضعف شأنها، أو يزهدهم فيها، أو يلومهم عليها، لأنها أساس للحياة. بل أورد التحفيز بصيغة التفضيل ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ففي حالة النداء لصلاة الجمعة فذلكم هو الأخير والأفضل، بما لا ينفي خير البيع والتجارة. بل أورد ذلك سبحانه وتعالى بالمفاضلة. ثم أعقب ذلك بأهمية الفهم والفقه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فإن كنتم من أهل العلم والفقه والفهم تذهبون إلى الأخير والأفضل، وتأجلون المفضول لوقته. فلا تقدموا المفضول على الفاضل. مما يبين دقائق القرآن الكريم في التعليم والتشجيع والتحفيز. وأهمية ترتيب الأولويات، خاصة عندما يكون هناك أولويات وفضائل متعددة، فإن في ترتيبها الترتيب الصحيح ما يدل على فقه وعلم صاحبها. وأن مَن لم يُحسن الترتيب، ويقدم مصالح الآخرة على حظوظ الدنيا فليس بصاحب علم. وأن العلم الحقيقي هو الذي يَظهر على صاحبه في التطبيق والممارسة العملية.

ثم بعد أن أمر سبحانه وتعالى المؤمنين بالاستجابة للأفضل والأخير، أعادهم بالتوجيه للمفضول، الذي هو البيع والشراء. مما يدل على عظيم حكمة الله سبحانه وتعالى، وتنظيمه لحياة المؤمنين، وتعليمهم ترتيب الأولويات، وأن الأهم لا يُلغي المهم. فقال سبحانه وتعالى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فإذا انتهيتم من صلاة الجمعة فسيحوا في الأرض بحسب مصالحكم، وابحثوا عن فضل ربكم من الرزق وغيره، مع مداومة الذكر لربكم عَزَّ وجل، لتحصلوا بكثرة ذلك الذكر على ما تريدون من الفضل والخير في الدنيا والآخرة. مما يبين الترابط بين الرزق وبركته، وبين الامتثال لطاعة الله تعالى وكثرة الذكر له جَلَّ جلاله. كما يفيد ذلك رحابة دين الله تعالى في استيعاب الخير، وفي الموازنة بين ما يجب لله تعالى من العبادة، وبين قضاء الإنسان لحوائجه، فقد نَظَّم تبارك وتعالى ذلك بخير وأفضل تنظيم، وأحسنه وأكمله. مما يبين أن هذا الدين هو دين الله تعالى، الذي وازن بين مطالب الدنيا والآخرة بأحسن ما يكون.

وقد رَتَّبَ سبحانه وتعالى للمؤمنين شأنهم بأحسن ترتيب، وعلمهم تنظيم الأولويات بأحسن ما يجب ويكون ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾ فإذا فرغتم من صلاة الجمعة، وانتهيتم منها ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فبدأهم سبحانه وتعالى بالتوجيه العام ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فسيحوا في الأرض بحسب مصالحكم، وتنوع

أغراضكم ومطالبكم. وذلك مراعاة لاختلاف أحوال الناس في مطالبهم المختلفة. فاستوعب الانتشار في الأرض جميع المصالح وباختلاف درجاتها وأنواعها.

ثم بعد ذلك أعادهم عَزَّ وجل إلى ما منعهم منه من ابتغاء فضله جَلَّ جلاله. فخصهم سبحانه وتعالى بما حثهم على تركه من أجل الصلاة، فأعاد سبحانه وتعالى لهم ما يريدون ويبتغون من فضله جَلَّ في علاه بأحسن وأبلغ أسلوب، وهو البيع والشراء، والذي عززه بأن نسبه إليه تبارك وتعالى. فقال جَلَّ شأنه ﴿ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ واطلبوا فضل ربكم، مما تنشدونه وتطلبونه من الأرزاق والمصالح المتنوعة والمتعددة. فلم يحصره في البيع والشراء، بل جعله سبحانه وتعالى عاماً بحسب تنوع مصالح العباد. وهذا من حكمة الله تعالى، وإعجاز دلالة الآية الكريمة.

وورد الإذن والحث لهم بأسلوب التبعيض ﴿ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ ليستوعب جميع أنواعه، لأن فضل الله تعالى لا يحده ولا يعده ولا يحصيه أحد من خلقه، فحثهم بحسب ما هم عليه ومقبلون إليه، وبحسب تنوع واختلاف مرادهم. كما أفاد قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ أن كل وجميع ما يطلبونه هو من رزق الله تعالى الذي تفضل به على عباده. ومن دقائق البيان كذلك أن جعل سبحانه وتعالى جميع ما يطلبه الإنسان ويسعى إلى تحقيقه هو من فضله تبارك وتعالى. فهو المتفضل على العباد بكل ما يجدون، وبكل ما يسعون إلى تحقيقه، وبكل ما يتحقق لهم فإنه بعون الله تعالى وفضله وتوفيقه. فهو فضل وتفضل من الله عَزَّ وجل. مما يفيد الربط بين طاعة الله تعالى بالاستجابة إلى صلاة الجمعة وبين ما تطلبون من فضل ربكم. فالذي أمركم بالصلاة سبحانه وتعالى هو صاحب الفضل الذي تنشدونه وتسعون لتحصيله. فهو الذي يتفضل عليكم، فالزموا طاعته ليزيدكم من فضله.

ثم يأمرهم تبارك وتعالى بالمداومة على ذكره جَلَّ جلاله. فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وأكثروا من ذكر ربكم ليتحقق لكم الفوز من الظفر بما تطلبون وتتمنون من خير الدنيا والآخرة. وقد ربط سبحانه وتعالى الفلاح بمداومة الذكر، من خلال أسلوب الرجاء ﴿ لَّعَلَّكُمْ ﴾ الذي يستنهض به القلوب، ويحرض به النفوس، ويُرَغب في الحرص على أداء ما أمرهم به ربهم تبارك وتعالى، وأن يُكثروا منه، والاجتهاد والعناية به، ليتحقق لهم مبتغاهم من الفلاح. وقد استجمع قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ﴾ جميع أنواع الذكر، من تلاوة القرآن، ومن التسبيح، والحمد والشكر على ما أنعم به عليهم من التوفيق لأداء فرائضه، ومنها أداء صلاة الجمعة، وغيرها من الصلوات. بل ورد هذا الذكر بالإكثار منه. فقال تعالى ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ

﴿كَثِيرًا﴾ ليفيد المبالغة في الكثرة، وأن لا يكون ذكراً قليلاً، بل ذكراً كثيراً، إذ بهذا الذكر يحصل لكم الفلاح والفوز والظفر بمطلوبكم في الدنيا والآخرة، فقال تعالى ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ليتحقق لكم الظفر والفوز بمطلوبكم. مما يفيد أن كثرة الذكر، وأداء العبادات سبب في الرزق وبركته. وأن على المؤمن أن يكون لسانه دائماً رطباً بذكره سبحانه وتعالى. فإن الخير والفلاح في كثرة ذكره عَزَّ وجل. كما أن في دوام ذكره جَلَّ جلاله ما يجعل المؤمن مراقباً لله تعالى في كل تصرفاته. وأما من غفل عن ذلك فقد تاه عما يضبط له سلوكه وتصرفاته.

وفي ذلك تحريض واستنهاض وترغيب لهم في الحرص على أداء مأ أمرهم به ربهم تبارك وتعالى، والإكثار منه، والاجتهاد في ابتغائه؛ لما يعود به عليهم من الفوز والظفر والفلاح ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وقد أعطت وأفادت دلالة ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾ الرجاء من العباد لما عند الله تعالى، كما أنها تفيد تعليل القيام بما أُمِرُوا به من الصلاة، وعموم العبادات، وعموم الخير. لتعطي جانب الاستثارة والاستنهاض والرغبة فيما أُمِرُوا به. لأن **(لعل)** تفيد الاطماع فيما عند الله تعالى من الفلاح، لأن الله عَزَّ وجل إذا أطمع أو طَمَّعَ عبده في شيء وَفَّاهُ وأوفاه له بأكمل ما يكون، فما على العبد إلا أن يستوفي مطالب ما وعده الله تعالى به من لزوم الطاعة لله جَلَّ جلاله. وهو أسلوب في غاية البيان، وفي غاية البلاغة البيانية. ودليل حاسم على أن تحصيل الجنة وعموم الفلاح في الدنيا والآخرة يقوم على بذل الجهد في أداء جميع أنوا العبادات، وأعظمها ومرتكزها الصلاة بعد الشهادتين، والاجتهاد على التسابق في فعل الخيرات، ولا يحقرن منه القليل. بل يجتهد بما يستطيع. مما يبين أن دين الله تعالى هو دين الخير، وهو دين السماحة والإحسان، والأخلاق. وأنه يثيب المؤمن على جميع أعماله، صغيرها وكبيرها.

وبعد أن حرضهم سبحانه وتعالى واستنهض هممهم نحو السعي لأداء صلاة الجمعة وترك البيع، وحثهم على ابتغاء فضله بعد أداء صلاة الجمعة، يعطف على ذلك اللوم والعتاب على من ترك ما أمرهم به عَزَّ في علاه. فقال تبارك وتعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وفي هذه الآية الكريمة معالجة لموقف قد حصل أثناء ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة. فقد وصلت تجارة من الشام، وهي محملة بالزيت، فخرج من خرج من الناس لها، مخافة أن يسبق إليها غيرهم. فنزلت الآية الكريمة[١] مما يبين فضل نزول القرآن مفرقاً، ليعالج مفاهيم العباد، ويصحح لهم مداركهم، وأخلاقهم، وطريقة عبادتهم، وفهم حقائق التفاضل، وترتيب الأولويات، وأنه يجب أن يقدموا عبادة الله تعالى على كل شيء، وأنها السبب في تحصيل فضل الله عَزَّ وجل. حتى يكونوا أسوة لغيرهم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٦٤٥)

ولمن بعدهم. ولذلك تعلم الصحابة رضي الله عنهم، حتى أصبحوا قدوات لغيرهم، فقدموا لنا الأسوة والنماذج الرائعة في جميع أبواب الخير.

وقد بدأت المعالجة بصيغة التعميم المخصِّص لِمَن قام وخرج من المسجد. فقال تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً ﴾ إذا أبصروا وعلموا بحال وشأن أمر من أمور التجارة التي يتاجر الناس بها لغرض التكسب، وتحصيل المرابح ﴿ أَوْ لَهْوًا ﴾ أو مما يتلهى الناس به من زينة الدنيا، وهو المعبر عما يفرحون به ﴿ ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ انصرفوا إلى ذلك ﴿ وَتَرَكُوكَ ﴾ أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ قَآئِمًا ﴾ أي: قائماً تخطب وتعظ. مما يبين هيئة حال المؤمنين في بداية الإسلام، لقليل علمهم، ولكنهم إذا علموا كانوا أقوى الناس تمسكاً بدين الله تعالى وبتعاليمه. ثم يزداد التوجيه والتعليم لهم شيئاً فشيئاً، حتى أصبحوا منارة علم وإشعاع يضيء لغيرهم.

وبعد أن عَرَضَ وأوضح تبارك وتعالى الموقف كما هو، وبأسلوب عام، حتى يستوعب كل من كان حاله كذلك عبر الأزمان المتتالية، يوجههم تبارك وتعالى بعد ذلك إلى ما يصحح لهم أفكارهم، ويعلمهم كيف يكونون في هذا الموقف، وفي غيره مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي عموم عباداتهم. فقال تعالى موجهاً الرسول صلى الله عليه وسلم بما يخبرهم به ﴿ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ قل لهم أيها النبي صلى الله عليه وسلم: إن ﴿ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ﴾ فإن الجزاء والثواب الذي عند الله تعالى حين تُطيعوه هو خير مما ذهبتم إليه من التجارة. فإن الجنة خير وأحسن وأفضل من تجارة الدنيا وزينتها، وما يُلهي من الملاهي عن ذكر الله تعالى. ثم يعزز ذلك سبحانه وتعالى ببيان مصدر أفضل أنواع الرزق. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ فإن ربكم سبحانه وتعالى هو خير من يُعطي ويَمُد عباده بالرزق، فاطلبوا والتمسوا طاعته ورضاه، واسألوه الرزق، فهو خير من يمدكم بأحسن الأرزاق وأفضلها وأنفسها وأكرمها.

وفي هذه المعالجة الكريمة من الله تعالى ما يبين سماحة هذا الدين في المعالجة، بأن عالج شأنهم بأحسن المعالجة، وذلك بالكشف عن موضع الخطأ بأحسن الأساليب، والنهي عن العودة للخطأ بألطف المعاني والدلالات، وتحفيزهم وتعليمهم بأن مصدر الفضل هو من ربهم الرزاق الكريم، فاعتمدوا عليه بطاعتكم لربكم، وتقديم مراد الله تعالى على كل مراد. وكذلك بيان ما كان يواجه النبي صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك يحلم عليهم، ولا يتضجر منهم، بل يحثهم، ويعلمهم بما علمه الله تعالى من العلم. ولا يجعل من الخطأ حداً فاصلاً بينه وبين من يُخطئ من المؤمنين، بل يعلمهم ويرشدهم، ويصحح لهم أخطاءهم وتقصيرهم عليه الصلاة والسلام.

ليعطي بهذا المنهج الرباني والنبوي خير الدروس في التعليم والتربية والتوجيه، وفي الدعوة والإرشاد. فالحمد لله تعالى على هذا الفيض العظيم من العلم الرباني الكريم.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الجمعة. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.